الديرية

أسبابها ونتائجها

« عرض عام للدور الاجتماعى والثقافى الذى لعبه نظام الديرية فى تاريخ العالم »

بقلم

الدكتور ج. ج. كولتون G. G. Coulton Dr. Litt.

العضو بكلية سانت جون بكمبريدج

ومؤلف كتاب : دراسات تاريخية فى العصور الوسطى ، وكتاب : من القديس فرنسيس إلى دانتى ، وكتاب : خمسة قرون دينية ... الخ

ترجمها إلى العربية

الدكتور جمال الدين الشيال

أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة الاسكندرية

الديرية : أسبابها ونتائجها[1]

«عرض عام للدور الاجتماعي والثقافي الذي لعبه نظام الديرية في تاريخ العالم»

بقلم الدكتور ج. ج كولتون G. G. Coulton Dr. Litt.

العضو بكلية سانت جون بكمبريدج ، ومؤلف كتاب : دراسات تاريخية في العصور الوسطى ، وكتاب : من القديس فرنسيس إلى دانتي ، وكتاب : خمسة قرون دينية ... إلخ

ترجمها إلى العربية

جمال الدين الشيال

الديرية نظام عريق في القدم ، قد يصل في قدمه إلى عصر ما قبل التاريخ ، فقد وجدت دائماً أقليات صغيرة من الرجال والنساء تجد في العزلة والتأمل الحالة التي تلائمها وتناسب طبيعتها ؛ وقد وجد هذا النظام له أتباعاً في الشرق في وقت مبكر ، ثم أصبح له في كافة بلاد الشرق كيان موطد الأركان باقترانه بالديانة البوذية ، وهذا الفصل يقتصر على دراسة الديرية المسيحية بوجه خاص .

لم تكن المسيحية ديناً فيه مواءمة للأوضاع الاجتماعية العادية والتقاليد المرعية ، إلا أنه عند ما أقلع المسيحيون الأوائل شيئاً فشيئاً عن التفكير في أن عودة المسيح وشيكة الحدوث ، فقد أصبحوا ولا مناص لهم من أن يختاروا بين ما كان يلتزمه المؤمنون الأول من تعلق متشدد بالحياة الآخرة ، وبين أن ينتهجوا سبيلا لينة تتفق مع طبيعة بشرية لم تعد تتوقع القضاء المفاجئ على هذه الحياة الدنيا ، وسرعان ما قامت حدود واضحة فاصلة بين العقول المتشددة والعقول المترخصة ، وفي مصر حيث كان التباين بين الفريقين على أقواه ، لا نلبث أن نجد بذور النظام الديري .

---

(١) هذه ترجمة للفصل ٨٤ من الموسوعة التاريخية :

The Universal History of the World. Edited by : Sir J. A. Hammerton.

كانت الاسكندرية إحدى المدن الكبرى فى الامبراطورية الرومانية ، وكانت من أوفر مراكز العالم نشاطاً اقتصاديا وعلمياً وأدبياً وفنياً . وكانت الاسكندرية ، لا روما ، المركز الثانى للفكر المسيحى بعد بيت المقدس على مدى أجيال طويلة ، ورغم هذا فقد كانت تسود فيها كل شرور المدينة الكبيرة ، وبالقرب منها تمتد الصحارى تتخللها واحات مهيأة على نحو رائع لحياة العزلة والتوحد ، وهناك اعتزل حوالى عام ٢٥٠ م أنطونيوس وبولا ، أقدم من عُرف من النساك المسيحيين ، واجتذبت حياتهما الزاهدة أناساً عديدين فسلكوا طريقهما ، وما لبث أن ازداد عددهم عند ما رفع الامبراطور قسطنطين المسيحية إلى مرتبة الدين الرسمى لجميع الامبراطورية الرومانية ، وبذلك أمدها بفيض عظيم من القوة السياسية ، غير أنه جعل مشكلة التعلق بالحياة الأخرى أكثر حدة .

على أن النمو السريع لحياة الزهد حتّم تجمع هؤلاء الزهاد ، لأنه لم يكن من الممكن للجموع أن يحيوا حياة فردية نقية .

القواعد الأولى للحياة الديرية : وفى عهد القديس جيروم S. Gerome (المتوفى عام ٤٢٠) نجد الرهبان يعيشون فعلًا فى مجتمعات منظمة ، وقد وضع باخوميوس حوالى عام ٣١٥ قانوناً لهذا النوع من الحياة المنظمة ، وبعد نصف قرن وضع القديس باسيليوس S. Basil قانوناً قامت الديرية الشرقية على أسسه إلى حد كبير ، وما زالت تستند إليه حتى اليوم .

ويخبرنا بالاديوس Palladius — الذى كتب تاريخه المعروف باسم "Lausiac History"(١) حوالى سنة ٤٢٠ — أنه وجد خمسة آلاف راهب فى صحراء النطرون Nitra ولم يكن بينهم غير ثمانية قسس ، منهم واحد فقط كان يقوم عادة بمراسيم تقديم القربان المقدس .

---

(١) بالاديوس مؤرخ يونانى ظهر فى القرن الرابع الميلادى ، ويعتبر من أقدم من أرخ للكنيسة أوائل ظهورها ، واشتهر بكثرة أسفاره إلى مواطن الرهبان والنساك فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، فاستطاع أن يعطى صورة جلية عن المظهر النسكى للكنيسة فى مصر والشام ، وتاريخه المعروف باسم Historia Lusiaca أهداه إلى Lausus رئيس البلاط الإمبراطورى فى زمنه (المترجم)

صومعة راهب قبطى

اكتشفت هذه الصومعة فى سفح جبل قرب العرابة المدفونة سنة ١٩٢٢، وهى تتكون من : محراب، وغرفة للسكن بها دكة للنوم، وحوض من الصخر النحيت، وموقد من الحجر . وخارج الباب كانت توجد مشكاة للمصباح وكان يحيط بالباب والنافذة الصلبان والنقوش المكتوبة.

جنون الحماسة الدينية

حملت الحماسة والعصبية الدينية بعض النساك والمتعبدين إلى مبالغات بعيدة عن العقل ، ويظهر هذا بصفة خاصة عند العموديين Stylei الذين كانوا ينصبون أنفسهم فوق الأعمدة ويعيشون حياتهم كلها هناك بعيدا عن البشر ، وهذه صورة من « تاريخ الشهداء للإمبراطور بازيل الثانى » توضح النظام الذى فرضه على نفسه القديس دانيال العمودى"S. Daniel the Stylite"

ويستطيع القارئ اليوم — اعتماداً على هذا المرجع التاريخى وعلى أمثاله من المجموعات المعاصرة والشبيهة بالمعاصرة — أن يكون فكرة سليمة عن الديرية الشرقية فى أوائل عهدها فى مظهريها التاريخى والاسطورى .

وتجمعت كل هذه الآثار فى مجلد ضخم معروف باسم « حياة الآباء Vitas Patrum » أصبح يعتبر فى الغرب اللاتينى عملا كلاسيكياً ؛ ومن اليسير الاطلاع على النص الشرقى لهذا المجلد فى الترجمة الانجليزية التى قام بها "سير أرنست واليس بدج Sir Ernest Wallis Budge» تحت عنوان: « فردوس الآباء — The Paradise of the Fathers» ، وهو كتاب لا يمكن الاستغناء عنه عند دراسة الحياة الديرية فى عصورها الأولى .

ولكننا نلاحظ أن الديرية الشرقية كانت أقل تدخلا فى التاريخ السياسى والاجتماعى من مثيلتها فى الغرب .

وأخذت حركة الديرية تنتشر غرباً ، فالمعروف أن عدداً من الأديرة الكلتية الأولى كانت وثيقة الارتباط بالنظام القبلى ، ويمكن تتبع الأديرة فى ايطاليا وفرنسا منذ عام ٣٦٠ ، فى أوائل القرن السادس نجد ثلاثة نظم ديرية غربية قام على تكوينها : قيصريوس الأرلى Caesarius of Arles ، وكاسيودوروس Cassiodorus ، والقديس بندكت St. Bindect ، ويعد النظام الثالث أكثرها فاعلية وتأثيراً ، وسرعان ما أصبح هو النظام الوحيد المعترف به لدى رهبان الغرب .

ولد القديس بندكت فى أسرة لها مكانتها ، ثم تلقى دراسته الأولى فى روما ، غير أن شرور هذه المدينة أثارت شعوره ، وقد كتب مؤرخ سيرته القديس جريجورى St. Gregory يقول « إنه احتقر فى تلك المدينة الدراسات الأدبية فرحل عنها جاهلا بهذه الدراسات عن عمد » ولجأ بندكت أول الأمر إلى كهف ، وعاش فيه حياة قاسية حتى حسبه الرعاة وحشاً غريباً .

وحدث آخر الأمر أن الدير المجاور لهذا الكهف اختار هذا الزاهد الغريب ليكون رئيساً له ، غير أنه لم يلبث أن غادر رهبانه قائلا لهم : « اختاروا لكم

رئيساً آخر تتفق حاله مع أحوالكم» ، وتقاطر المريدون من جديد على كهف القديس بندكت فصنفهم إلى جماعات صغيرة ، تتألف كل منها من اثنى عشر راهباً عليهم رئيس ، وهو رقم أصبح مقرراً فيما بعد ، لا فى النظام البندكتى فحسب ، بل فى النظم الديرية الأخرى ، فكل مجتمع يتكون من ثلاثة عشر فرداً على الأقل اصطلح على أن يطلق عليه اسم « مجتمع ديرى أو رهبانى . « Conventual

على أن ما لقيه هذا الزاهد من نجاح لم يقابله إلا اضطهاد رجال الدين الأكثر ترحضاً ، ولكن النصر فى النهاية كان للقديس بندكت ، فأصبح متعارفاً على أن ديره فى مونت كاسينو Monte Cassino — القائم على تل بين روما ونابلى — هو حاضرة الديرية الغربية .

والنظام الذى وضعه القديس بندكت عمل ممتاز امتزجت فيه القوة بالفطنة والحصافة ، وكل من سلك هذا الطريق يجب عليه أن يلتزم هاتين الصفتين فى جدية كاملة ، وإخلاص تام ، فالنظام ليس إلا « القانون الذى أختبرت أن تحارب بمقتضاه » فمتى أقرّه الإنسان وقبله ينبغى ألا يتشكك فيه أو يناقش سلطة الرئيس ؛ فرئيس الدير يقوم مقام المسيح فى قيادته لتلاميذه ، وفى رعايتهم والحدب عليهم ، وهذا التأكيد على الطاعة يبرره ما انطوى عليه النظام ذاته من الاعتدال وعدم الصرامة .

وإنا لنلاحظ أنه لم يكن من منهاج القديس بندكت أن يقيم طائفة من القسس والدارسين ، بل إنه من المحتمل أنه لم يكن يتطلع مطلقاً إلى إقامة « طريقة » بالمعنى المفهوم .

وكل ما فعله أنه وضع نظاماً لنفسه ولمجتمعه الصغير قام على أساس من التجربة الناضجة ، والآراء الحكيمة ، والتعاطف الانسانى الحقيقى ، مما جعل نظامه يصمد لتجارب قرون عديدة ، وما جعل قدراً كبيراً منه يظل باقياً برغم كل ما فرضته الأحوال الحديثة من قيود .

أدرك القديس بندكت أن الدير ليس إلا مجتمعاً مكتفياً بذاته ، فينبغى إعداد المبانى بحيث تضم كل الأقسام والمخازن الضرورية . والفصل السادس

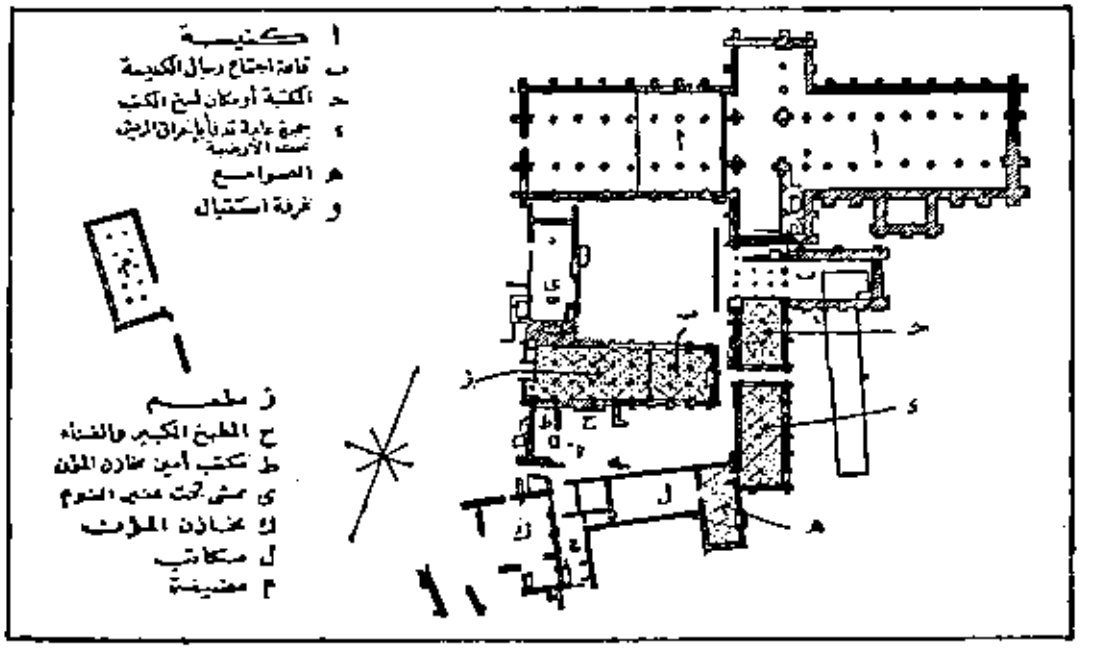

رسم تخطيطى لدير سانت مارى فى يورك

كانت كل الأديرة تبنى وفق خطوط عامة متشابهة . وكانت الكنيسة بمثابة القلب أو الجزء الرئيسى فى المؤسسة كلها ، وفى الناحية الجنوبية من الدير تقع فى العادة القلايات أو الصوامع ، وعلى الجوانب الثلاثة الأخرى كانت تصطف المبانى المخصصة لحياة اليومية للمجتمع الديرى ، أما غرف النوم فكانت تقع فى الطابق العلوى ؛ وتبدأ وراء القلايات يقع المطبخ والمكاتب وتتصل بها أيضاً قاعة الأكل ؛ وفى الدير البندكتى لسانت مارى فى يورك كانت دار الضيافة تشغل مبنى منفصلا .

والستون من القانون الذى وضعه بنص على أنه لا يسمح لأى راهب – فى الأحوال العادية – بمغادرة حرم الدير ، ولقد فسر الشارحون الأول هذا النص تفسيراً متزمتاً غاية التزمت . فكان على الراهب أن يحيا داخل هذا الحرم حياة أشبه ما تكون بحياة الفلاح الايطالى المعاصر للقديس بندكت ، فعليه أن يرتدى نفس الرداء الريفى الخشن بقلنسوته ، وتحته قباء من الصوف ، وأن يكون مقلا فى استعماله للخمر (لم يكن الامتناع عن المسكر معروفاً فى العصور الوسطى) ، وألا يأكل اللحم إلا فى حالات المرض ، وأن يدأب على العمل طوال النهار ، وأن ينال قسطاً معتدلا من النوم فى الليل .

على أن أعمال الراهب تختلف دون شك عن أعمال الفلاح ، فمن عمله ما يقوم بتأديته يدوياً فى الحقل أو الحديقة أو المطبخ ، ومنه جانب عقلى ، فقد فرض القديس بندكت أن يمضى الراهب ثلاث ساعات فى القراءة يومياً ، إذا لم يكن أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ، وكان من الواجب على الراهب كذلك القيام بالصلاة العامة لمدة نحو أربع ساعات ، فضلا عن الصلاة الفردية أو التأمل الذى يفرضه الفرد على نفسه ؛ أما القداس فكان يقام عادة فى أيام الآحاد وفى الأعياد الدينية الكبرى ، ولهذا لم يكن بين البندكتيين الأول – مثلهم فى ذلك مثل الرهبان فى صحارى المشرق – غير نسبة ضئيلة من القسس .

كذلك كانت حياة الراهب الصالح – فى نواح أخرى – أقسى من حياة الفلاح ، لأن قوانين الرهبنة كانت تفرض عليه الصمت ، ولم يكن المقصود الصمت التام ، ومع هذا فإن المصلحين المتزمتين كانوا يفسرونه على هذا الوضع ، غير أنه كان يطلب من الراهب على الأقل أن يتحاشى المحادثات العامة سواء فى مكان عمله أو فى أى مكان آخر ؛ أما غرفة المحادثة Parlatorium التى كان يباح استعمالها لأوقات معينة أثناء النهار فهى تمثل تطوراً جاء متأخراً فى نظام الديرية ، وحدث هذا التطور فى وقت كان الرهبان فيه – على الرغم من هذا الصمت المفروض عليهم – يخضعون لدافع الطبيعة البشرية ، فأصبحوا يشغلون أنفسهم بجمع أخبار الأحداث الجارية ونقلها ، ولكن الشئ الذى لا شك فيه هو أن القديس بندكت لم يكن يجيز الثرثرة والمجون ،

فهو فى الفصل السادس من قانونه لا يمنع فقط الكلمات المثيرة للضحك ، بل يمنع كذلك لغو الحديث ، أى ذلك الذى لا يهدف إلى التهذيب بشكل قاطع .

وأخيراً فإن الخطوات الثلاث المثالية التى فرضها القديس بندكت لإنكار الذات ، وتطلب أن يتحلى بها الرجل الصالح ، هى : الطاعة ، والفقر ، والطهارة ، وكانت تعد فى العصور الوسطى الأمور الثلاثة الأساسية التى بدونها لا يمكن أن تقوم الديرية الصحيحة ، وكان من المتفق عليه أن البابا ليس له الحق فى إعفاء الراهب من الأمرين الأخيرين ، أى : الفقر والطهارة ، إلا اذا استطاع — كما قال البعض — أن يمحو ويزيل جميع العهود والالتزامات ، ويحوّل الراهب عن رهبانيته .

والفقر من وجهة النظر الشخصية يجب أن يكون مطلقاً ، والراهب يرتكب إثماً كبيراً إذا ادعى لنفسه ملكية خاصة ، مهما تضاءل شأنها ، كأن يدعى ملكية قلم أو غيره من الأشياء ، ولكن لم يكن هناك ما يمنع إغداق العطايا على الرهبان بوصفهم جماعة ، وقد أغدقت عليهم فعلا الهبات الوفيرة ؛ وكانت النظرية تنص إلى وقت متأخر على أنهم يستحوذون على هذه الأموال باعتبارها وقفاً يصرف منه لصالح الآخرين ، ومع هذا فإن كبار رجال الكنيسة ممن لا يرقى الشك إلى عقائدهم كانوا على استعداد لأن يصرحوا بأن هذا الوضع أصبح بطبيعة الحال « وهما قانونياً » ، وذلك أن الرهبان كان لهم فى الحقيقة كامل التصرف فى كل إيراداتهم تقريباً ؛ وأن ادعاءهم الفقر يجب أن يعدل وفقاً لما أصبح لهم من سلطان ، ولا مراء فى أن موضوع الهبات وما يصحبه من ثروة تصدر عن الامتيازات الشرعية هو العامل الرئيسى والأكثر دلالة فى تاريخ الديرية ، فمن الثابت منذ الأيام الأولى لنظام الديرية أن هذين العنصرين ، وهما التقشف والقوة المادية لم ينفصل أحدهما عن الآخر ، كما أنه لم يجر بينهما توافق وملاءمة من ناحية أخرى ، كما يصور القديس أوغسطين فى كتابه «مدينة الله City of God» ما كان عليه أمر الكنيسة والدولة .

مُقدّم الرهبان فى دير سانت ألبان

كان المقدم هو الشخصية الثانية فى الدير ، ويلى فى المرتبة الرئيس ، والرئيس هو الذى يعينه ، وإليه يعهد بالإشراف على جماعة الرهبان ، وعلى النظام داخل الدير ، ومراعاة المحافظة على القوانين .

وفرة الثروة والامتيازات : وسرعان ما نال هذا النظام الديرى القويم ما يستحقه من ثروة وقوة ، وفى عهد القديس بندكت جاءه النبلاء بأولادهم ليرعاهم وليجعل منهم رهباناً ، وينص البند الخمسون من القانون أيضاً على أن المتقدم للرهبنة يجب أن يقدّم — عند دخوله فى هذه الطائفة — كل ما يملك ، إما إلى الفقراء أو إلى رصيد الدير ، وبهذه الطريقة — وبخاصة ما كان يخلفه الأفراد عند موتهم من وصايا تجرى لصالح أرواحهم — تراكمت فى الأديرة إيرادات وفيرة تزايدت أحياناً حتى بلغت مقادير ضخمة ، وزادت الامتيازات بمعدل متساو ، فقد كان الناس يقدسون أفراد الدير وممتلكاته تقديساً غير عادى ، وكانت الأعمال فى الدير — فى العصور الأول — تختتم بتلاوة لعنات رهيبة كئيبة على كل من يتعدى على هذه الممتلكات أو الامتيازات أو يغتصبها ؛ ولهذا فان الأديرة سرعان ما أثرت وكثر عددها ولكن فى غير تناسب مع عدد أولئك الذين لديهم استعداد طبيعى للحياة الدينية .

وقد زخرت العصور المظلمة — بما تعاقب عليها من غزوات البرابرة ومن محاولات يائسة للتعمير — بالصعوبات التى اعترضت نظام الديرية ، فلم تلبث الحماسة أن فترت ، كما ازداد الاغراء باختلاس الممتلكات ، وأخذ النظام يفقد بالتدريج قدراً كبيراً مما تميز به أول الأمر من الطابع الدينى والخيرى ؛ وصادر شارل مارتل (المتوفى عام ٧٤١) كثيراً من الهبات الديرية لتمويل إصلاحاته الحربية ، ولعل المجتمع أفاد بوجه عام من هذا الاجراء . كذلك يتحدث « بيد Bede » (المتوفى عام ٧٣٥) صراحة عن انحلال الديرية فى انجلترا ، كما أن قرارات شارل الكبير وقرارات خلفائه طوال القرن التاسع تروى نفس القصة .

حقيقة جرت من حين لآخر محاولات قوية للاصلاح تولاها رجال مثل القديس بندكت الأنيانى S. Benedict of Aniane فى عهد امبراطورية شارل ، والقديس دنستان S. Dunstan فى انجلترا ؛ كما قامت الأرساليات

الأنجلوسكسونية والكلتية بجهود كثيرة فى جهات متفرقة ، ولكن فى أواخر العصور المظلمة — حوالى عام ١٠٠٠ م — كانت الديرية قد انحدرت بوجه عام ، وبعدت عن نقاوتها وطهارتها الأولى .

وصحب حركة الإحياء العامة للحضارة حركة إحياء أخرى فى نظام الديرية تزعمها دير كلونى Cluny فى برغنديا ؛ وقد تأسس هذا الدير فى عام ٩١٠ ، ولكنه سرعان ما أحرز من عظيم النفوذ ما مكنه من إقامة أول هيئة ذات أهمية كبرى فى تاريخ الديرية الغربية ، إذ كان يتبعها قبل سنة ١١٠٠ مائتا دير ، وفى عام ١٥٠٠ أربت هذه الأديرة على ثمانمائة ، ومع أن بعض هذه الأديرة كان على نمط بسيط ساذج فإنها كانت تنافس أكبر أديرة أوربا ، وكان دير كلونى نفسه يضم أعظم كنيسة فى الغرب ويعد رئيسه أعظم رجال الدين نفوذاً بعد البابا ، فكان بمثابة الرئيس الأعلى لكل أديرة المجمع ، وله من النفوذ ما يمكنه من الخلع أو الرسامة ، وفى كل سنة يجتمع فى «كلونى» ممثلو المائتى دير فى اجتماع عام ، كما كانت تقوم جماعة خاصة بزيارات سنوية للأديرة وتضع التقارير عن الأحوال الداخلية لكل منها .

والنتيجة الطبيعية لذلك أن وضع المجمع كله نظام استثنائى ، بمعنى أنه أصبح مستقلا عن أساقفة الأبرشية ، ومسئولا أمام البابا وحده ، ولم يتمتع بهذا الاستثناء غير عدد محدود من الأديرة ، وكان «كلونى» أولها . وقد قدم مجمع كلونى خدمات كثيرة لا لإحياء النظام العادى وإصلاحه فحسب ، وإنما لعالم الآداب والفنون كذلك .

على أن هذه الاجتماعات الدينية والرهبانية بدأت تصيبها عوامل الانحلال فى داخلها فى أواخر القرن الحادى عشر ، مع أن المجتمع الخارجى كان يسير خطوات حثيثة نحو التقدم ، وكان من المتوقع أن يتقدم الراهب بتقدم العالم ؛ وبين سنتى ١٠٢٠ ، ١١٢٠ قام من الجماعات المصلحة ما لا يقل عن ثمانى جماعات رهبانية صالحة كان ختامها طائفة الكارثوذيين Carthusians (١٠٨٤) ، وجماعة السيسترشيين Cistercians (١٠٩٨) ، وجماعة البريمونستراتنسيين (١١٢٠) .

مغسل القلايات فى دير جلوستر

على الجوانب الشمالية والغربية والشرقية للقلايات فى أى دير حيث كان جماعة الرهبان يقضون معظم أوقات حياتهم ، كانت توجد تجاويف فى الحائط مكسوة بالخشب متصل بها أدراج يستعملها الرهبان عند الكتابة أو الدراسة ، أما الجانب الجنوبى الخالى من الشمس والذى تسوده البرودة فقد كانت تقوم فيه فى العادة حجرة الطعام والمغسل ، كما كان الحال فى دير جلوستر Gloucester ، ولم يكن فى هذا المغسل غير حوض طويل يتيسر للرهبان استعماله عند الاغتسال والتطهر .

ويعد السيسترشيون أهم هذه الجماعات ، فقد كانوا يهدفون إلى العودة بالديرية إلى أصول القانون الذى وضعه القديس بندكت والذى كان مجمع كلونى نفسه قد تخفف منه كثيراً ، وعلى الرغم من أنهم ارتكبوا الشطط أحياناً شأنهم فى ذلك شأن كل المصلحين الذين يضطرون إلى مناهضة عوامل التراخى المزمنة ، فانهم التزموا الصواب فى أغلب الأحوال . كان زعيمهم الأكبر فعلا — وإن لم يكن من الناحية الرسمية — هو القديس برنارد St. Bernard (المتوفى عام ١١٥٤) ، فقد جمع هذا الرجل بين المواهب الدنيوية الفذة والحماسة الدينية الملتهبة .

وفى زمنه بلغت ديرية العصور الوسطى أوجها ، فلمدة قرنين من الزمان انهال على الرهبان من الأموال والتمجيد الدنيوى ما لم يسبق له مثيل منذ الأيام الأولى لنشأة هذا النظام ، ويمكن القول بوجه عام أنهم كانوا يستحقون هذا كله . وصحيح أن القانون البندكتى الذى يقضى بوجوب العزلة قد صار إهماله عاماً ، ولكن إهماله لم يجرب إلا فى سبيل تحقيق غرض آخر يثير الاعجاب ، وهذه الحقيقة تظل قائمة حتى بعد حذف المبالغات غير المعقولة التى تتضمنها — على سبيل المثال — هذه الجملة التى نقتبسها عن « ثورولد روجرز Thorold Rogers » ، فهو يقول : « كان الرهبان فى العصور الوسطى هم رجال الأدب والمؤرخين والفقهاء والفلاسفة والأطباء ودارسى الطبيعة».

واستعمال أداة التعريف « أل » حتى فيما يتعلق بالأدب والتاريخ لا تؤيده الحقائق ، فإن الرهبان لا يتفوقون فى هذه الميادين على رجال الكنيسة المدنيين ، ولا سيما إذا قدرنا الفرص التى كانت متاحة لهم (أى للرهبان) .

أما الفلسفة فالدعوى فيها أكثر صدقاً ، ومع هذا فإن المفكرين الثلاثة الأكثر نبوغاً فى هذا العصر لم يكونوا رهباناً ، وهم يوحنا سكوتس Johannes Scotus Erigena ، وأبيلارد Abélard ، ومرسيليو من بادوا Marsilius Padua.

الرهبان يحرمون من ممارسة القانون والطب : وأما إنتاجهم فى القانون والطبيعة فقد كان إنتاجاً جزئياً ، اذ أن قرارين بابويين قد جعلا من المستحيل على الرهبان من الناحية العملية أن يصبحوا دارسين محترفين أو متخصصين فى القانون أو الطب .

ولقد كان السبب فى هذا المنع مزدوجاً ، فإن الاشتغال بهذه الدراسات قد يؤثر من ناحية فى عمل الرهبان الدينى ، وقد يدفع — من ناحية أخرى — الراهب المحامى أو الطبيب إلى تقاضى الأجور على مهنته ، واقتناء أملاك خاصة ؛ وهذا يهدم أساساً من أسس الرهبنة الثلاث السابق ذكرها .

أما علم الطبيعة ، وهو ما كان الراهب يدرسه داخل قلايته فلا يقاس فى الواقع بما كان يدرسه غيره خارج الدير ، وهنا نستطيع أن نستثنى بعض الرجال المشهورين من أمثال روجربيكون Roger Bacon (الذى سجنه زملاؤه الرهبان) ، وأفراد قلائل من الرعيل الأول من رهبان أوكسفورد Oxford Friars ، وهؤلاء الذين تأثروا برجل أعظم منهم وهو « جروستست أسقف لنكلن Grosseteste bishop of Lincoln » .

وفى ميدان الفن كذلك نجد أن الأسطورة القائلة بأن الرهبان لعبوا دوراً خطيراً فيه إنما تعتمد على القراءة الخاطئة أو الاهمال للوثائق الحقيقية ، وتعتمد بوجه خاص على تعميمات ينقصها المبرر مستخلصة من حالات قليلة معينة (كما تدل على ذلك الوثائق نفسها فى معظم الأحوال) .

ويجب أن نتذكر هنا أنه كان فى انجلترا وحدها حين حلت الأديرة ثمانية آلاف راهب ، ولعلهم كانوا اثنى عشر ألفاً فى سنة ١٢٥٠ . والواقع الذى نخلص إليه هو أن نسبة الفنانين من الرهبان إلى الفنانين جملة لم تزد كثيراً على نسبة الرسامين بالألوان المائية من رجال الكنيسة الانجليكانية فى يومنا هذا.

والخدمات التى أدتها الأديرة للتربية لم تخلُ من المبالغة فيها أيضاً ، فالمدارس الديرية فى الأيام الأولى كانت عادة خير المدارس الدينية ، وفى بعض الأحيان كان الرهبان الخاضعون لنظم الارساليات الأولى يديرون مدرسة صغيرة لتعليم الوافدين من الخارج ، فضلا عن تلاميذهم من الرهبان الجدد ، ثم أصبح يلحق بكل دير كبير مدرسة خيرية صغيرة ومدرسة أخرى أصغر منها للمرتلين ؛ وعلى الرغم من أوامر المنع والحظر الصادرة من الرؤساء الدينيين كان عدد قليل من الراهبات يحاولن زيادة مواردهن الضئيلة

السهر والصلاة على الميت

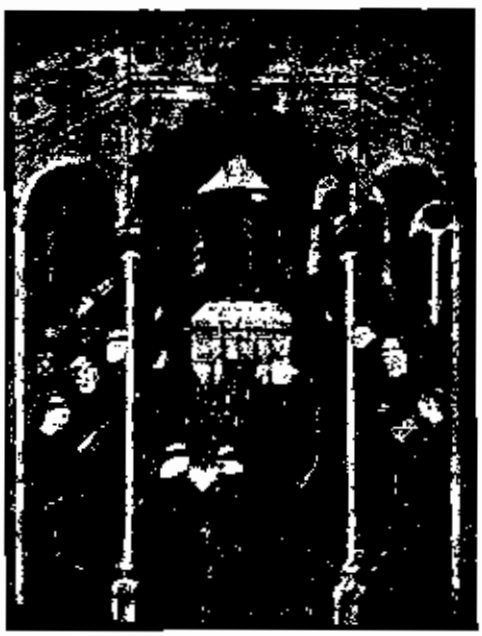

عندما كان يموت الراهب كان جثمانه يحمل إلى الكنيسة خلال البوابة الكبرى ويوضع أمام المذبح حيث يبقى تحت أعين رفاقه يصلون عليه إلى أن يحين موعد دفنه .

بالتدريس لبعض الأطفال ، أو لبعض التلاميذ الكبار المقيمين بالأقسام ؛ على أن الأديرة لم يكن لها صلة مباشرة بانشاء الجامعات ، فالرهبان الذين درّسوا فى الجامعات كانوا فى الغالب كما مهملا ، ولم تصادف المحاولات البابوية منذ سنة ١٣٣٦ لدفع عدد من الرهبان للدراسة فى الجامعة إلا نجاحاً جزئياً على أحسن الفروض .

وأخيراً يجب أن نستخلص نتائج مماثلة من القول الشائع بأن الأديرة كانت حوانيت كبيرة لنسخ الكتب، إذ توافر من الأدلة ما يكفى لمعالجة هذا الموضوع من الناحية الاحصائية فى نطاق محدود ، وذلك أن فهارس الكتب الموجودة فى الأديرة خلال قرون مختلفة تمكننا أحياناً من احصاء نسبة الزيادة إبّان وقت معين ، وهذه النسبة لم تزد مطلقاً على ما نقدره لعمل راهب واحد — من بين خمسين راهباً — إذا دأب على العمل باستمرار نصف اليوم بسرعة ناسخ محترف ، هذا إذا افترضنا أن كل الكتب الجديدة قد كتبها رهبان ، على حين أننا نعلم أن هذه الكتب جرى فى حالات كثيرة اهداؤها إلى الأديرة أو تمّ بيعها الى الأديرة ، أو قام على كتابتها داخل الدير نساخ مأجورون ، وهناك من الأدلة ما يثبت أن استئجار النساخ كان نظاماً معمولا به قبل سنة ١٣٠٠ ، وخاصة فى الأديرة الكبرى التى كانت تحتوى على قاعات نسخ Scriptoria « مشهورة ، مثل دير القديس ألبان S. Alban ، ودير كورڤ Corvey .

ولكن على الرغم من هذه الاستنتاجات جميعها نستطيع أن نقول أن الديرية تعد من أعظم عوامل الحضارة فى العصور الوسطى ، إن لم تكن أعظمها ، فالأديرة هى الوسيلة الأساسية التى انتقلت بها الحضارة الرومانية القديمة . فعند ما فتح القائد القوطى تيودوريك Theodoric ايطاليا اتخذ كاسيودوروس Cassiodorus الرومانى وزيراً له ، وبعد أن خدم هذا الرجل الدولة ثلاثين سنة تقاعد فى قريته سكويلاس Squillace فى مقاطعة كالابريا Calabria ، فأنشأ بها ديراً ووهبه مكتبة ورسم له مشروعاً للدراسة ، والراجح أن خير ما هو موجود الآن من ترجمات لاتينية للكتاب المقدس

إنما جاءت من مكتبة كاسيودوروس . ومن الطبيعي أن الأديرة الأخرى كانت تضم مجموعات من الكتب أصغر من هذه أو أكبر ، وأن نسبة كبيرة من هذه الكتب — في أصولها أو في صورها المنسوخة — قد بقيت سليمة برغم ما جرى من غارات البرابرة وقرصنة النورمان ، وما جلبته الحروب الأهلية من خراب ودمار ، أو الإهمال الشخصي وسوء الادارة الداخلية ، وتغير الأنماط والنظم (ولعل هذا كان أخطر في ذلك العهد منه اليوم) .

ويحدثنا الراهب سالمبين Salimbene — فيما كتبه في أواخر القرن الثالث عشر — كيف أن إزالة كتابة المخطوطات ومحوها كان يتخذ في أحد الأديرة مهنة مألوفة ، فقد كانوا يمحون الكتابة القديمة ليكتبوا مكانها شيئاً جديداً ، وفي العصور الحديثة كشف كثير من أفضل النصوص وأقدمها مكتوبة تحت نصوص أحدث منها .

وهناك دليل آخر على الاهمال التام للكتب يتمثل في الشكاوى التي أبداها الأسقف رتشارد دي بيوري Richard de Bury في كتابه « حب الكتب Love of Books » ، وفي الحالة التي وجد عليها « بوكاشيو Boccaccio » — حوالي نفس الوقت — دير القديس بندكت في مونت كاسينو ، ولكن بقيت هناك حقيقة لا يصح إغفالها ، وهي أن الكتب التي بقيت خلال العصور الوسطى إنما تدين ببقائها إلى الأديرة ، وهذه الحقيقة تصدق إلى حد ما حتى على العصور الوسطى المتأخرة .

وفيما يتعلق بالزراعة نجد أن الرهبان تقبلوا ونقلوا التقاليد الرومانية للملكيات الكبيرة ، ففي تلك العصور المظلمة استطاعت ضياعهم أن تقاوم عوامل الفوضى أكثر مما استطاعت الضياع المدنية العادية ، فقد كانت تدار بنظام أدق وتعد حساباتها بطريقة أفضل .

وإذا كنا نجد في العصور الوسطى المتأخرة — أن الرجل العلماني غالباً ما يتفوق على الراهب ، فإن ذلك يرجع إلى حد ما إلى أن الأمراء والنبلاء كانوا يستغلون وقتذاك الأفكار التي سبق لهم أن تعلموها في الأديرة في عصورها

أثناء العمل فى حجرة الكتابة والنسخ

فى حين أنه قد بولغ فى الخدمات التى أدتها الأديرة للإكثار من الكتب نجد أن الأديرة الكبيرة كانت توجد بكل منها قاعة للنسخ حيث كان الرهبان أو الكتبة المحترفون المستأجرون (وهذه صورة واحد منهم) يزودون بالأدوات اللازمة لنسخ الكتب .

راهب كرملى فى مكتبته

أسست طائفة الإخوان الكرمليين على جبل الكرمل فى القرن الثانى عشر ، ثم انتشرت فى أوربا فى القرن الثالث عشر ، ولأنهم كانوا يرتدون القباء الأبيض فوق ردائهم الأسود فقد عرفوا باسم الإخوان البيض .

الأولى ؛ ومما لا شك فيه أن الفلاحين احتفظوا — فيما يتعلق بتفاصيل الزراعة الأولية — بالتقاليد الرومانية ، فهذه الأمور العادية تنتقل عادة من الأب إلى الابن ، ولم تستطع الغارات أن تقضى على هذه المعرفة إلا فى المناطق التى فنى الفلاحون فيها فناء تاما .

ومع هذا فإن الرهبان أسهموا بقدر كبير فى هذا الميدان بالمحافظة على المؤلفات الزراعية للكتاب الرومانيين القدماء ، وليس من سبيل للشك فى الروايات التى تقول إن أصنافاً مختلفة من الكمثرى والتفاح وغيرهما قد انتشرت نتيجة لتبادل الأشجار المطعمة ما بين دير ودير آخر .

أما جهود الرهبان فى ميدان الاحسان فقد كانت جهوداً عظيمة جداً حينما كانت الحركة فى أوجها ، ولم تضعف كثيراً حتى عند ما كانت الحركة فى أسوأ حالاتها ، صحيح أن معظم هذا الاحسان كان يجرى وفقاً لقانون ، بمعنى أن المال كان يتركه المحسنون الذين خصصوه تخصيصاً قاطعاً للفقراء ، وكان يسمح للرهبان تبعاً لهذا أن يستنزلوا هذا المال من بيان دخلهم الذى رجعوا إليه سنة ١٥٣٥ عند تحديد الضريبة الكنسية المعروفة باسم The Valor Ecclesiasticus ، وصحيح أيضاً أن هذه الحصص القانونية من الأموال لم تكن توزع دائماً توزيعاً كاملا ، فما وصلنا من شكاوى المعاصرين ، وما ورد فيما بقى مصادفة من دفاتر حسابات الرهبان يدل على أن قدراً ملحوظاً من هذه الأموال قد اختلس ، ومع ذلك فقد بقيت للرهبان فى ميدان الإحسان جهود تؤيد الرأى القائل بأن حل الأديرة كان عاملا كبيراً من العوامل التى أدت إلى تفاقم الأزمة الزراعية فى القرن السادس عشر

وإذا نحن واجهنا الحقائق فى أسوأ صورها ، وفى أسوأ الأزمنة والأمكنة وجدنا أن حياة الراهب العادى كانت أكثر انتظاماً من حياة الرجل العادى من غير رجال الدين ، فإذا نحن استطعنا أن نقيس حياة الراهب بهذا المقياس مع عدم النظر إلى مهنته السامية وإلى الهبات السخية التى تغدق عليه ، وإلى الامتيازات السياسية والاجتماعية العظيمة التى كان يتمتع بها فإن هذا يخفف من حدة النقد الموجه إليه . ولكننا لانستطيع أن نقف عند هذا الحد ،

فإن من واجبنا ألا ندخل فى اعتبارنا ما كان عليه فحسب ، بل يجب أيضاً أن ندخل فى اعتبارنا ما ينبغى أن يكون عليه . وهناك تقارب فى الرأى بين الدارسين من المتمسكين بالأصول وغير المتمسكين بها حول مراحل الانحلال التدريجية التى يمكن أن تفسر وحدها الكارثة التى حلت فى القرن السادس عشر .

ولقد أشرنا من قبل إلى أولى هذه المراحل ، وذلك أن المال بدأ يخنق الدير ويسد عليه السبل ، وقد لاحظ هذه الحقيقة المتمسكون بالأصول فى القرن الثانى عشر ، كما لاحظها أىُّ البيجنى أو ويكلفى ، وكذلك يدل « الدوم أورسمر برليير Dom Ursmer Berlière [1] — وهو عالم بندكتى محدث — ما لم يبذله غيره للكشف عن عيوب النظام الذى كان يتبع لاختيار الرهبان وضمهم إلى الأديرة البندكتية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ونحن نستطيع — دون أن نعدو الحقيقة — أن نطبق على هذه الأيام المثل الذى كان سائراً فى ألمانيا خلال الأيام الأخيرة من العصور الوسطى ، والذى يقول « إنّ الأديرة ما هى إلا بيوت الصدقات للنبلاء » ، أى أنها كانت ملجأ لمن لا صداق له من صغار أبناء النبلاء وبناتهم . وقد توافر فيها من الوظائف المريحة ما يزيد على عدد الصالحين بطبيعتهم للخدمة الدينية ، وفى أغلب الأحوال كانت الأقلية التى ترغب جادة فى الرهبنة لا تلبث أن تجد من ضروب الاغراء ما يجعلها تحذو حذو الكسالى المتراخين ، أو تعانى من الاضطهاد والاذلال ما يؤدى إلى وهنها وضعفها .

وإنا لنجد فى القرن الخامس عشر راهباً مصلحاً من مدينة ڤينا يسأل أسقفاً من أصدقائه : إلى أى حد يُلزم القسمُ الرسمى الرهبانَ — من الناحية الخلقية — بالتمسك بنظام الرهبنة الحقيقى ؟ واذا أخذنا هذا القسم بحرفيته ، فمَنْ يدخل الجنة من الرهبان ، لأن هناك أموراً كثيرة لا يحافظ عليها الرؤساء أو أتباعهم ؟ بل تشهد بهذا القوانين الواردة فى الفصل الذى تناول القواعد العامة للرهبنة ،

(١) الدوم Dom لقب يسبق أسماء كبار رجال الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، والرهبان البندكتيين والكارثوسيين .

الملابس المميزة للطوائف الدينية فى انجلترا

وصلتنا معلومات وثيقة عن ملابس عدد من الطوائف الدينية عن طريق صفحة من كتاب للمزامير موضح بالصور يرجع إلى القرن الرابع عشر ، وهو أحد مقتنيات كلية سيدنى سكس فى كامبردج . وعلى طول الجزء الأسفل من الصفحة يوجد هذا الشريط الذى ترى صورته هنا ، وهو يبين من اليسار إلى اليمين : راهبين من السترشيان فى ملابسهما البيضاء ، وراهبين من الدومنيكان فى ملابس سوداء تعلو الملابس البيضاء ، وراهبين من المحتمل أن يكونا من البريمونسترانسيين فى ملابس بيضاء ، واثنين من الإخوان الأوستينيين ، وراهبين من الفرنسكان فى ملابس بنية اللون ، وراهبين من الكرمليين فى ملابس بيضاء تعلو الملابس السوداء ، ثم راهبين من البندكتيين .

ذلك لأن معظم الارشادات الهامة التى ينص عليها قانون الديرية كانت قد أهملت اهمالاً واضحاً وجرى إغفالها رسمياً ؛ فلحم الذبيحة مثلا الذى كان مؤسس النظام قد حرّمه تحريماً قاطعاً بلغ من شيوع تناوله وأكله أن أضطر بندكت الثانى عشر فى سنة ١٣٣٧ أن يبيح أكله يوماً بعد يوم ، كذلك كانت القواعد المشددة التى تحتم الخلوة للعبادة قد أهملت ولم تعد تفرض إلا على أنها عقاب استثنائى ، فالراهب الذى يقول لأخيه : « أنت تكذب » لم يكن يسمح له بمغادرة حرم الدير لمدة ثلاثة أسابيع ، أما الضرب عمداً بقبضة اليد أو بسكين فعقابه كان العزلة لمدة سنة ؛ وتكاثرت الديون ، والسبب الرئيسى فى تكاثرها يرجع إلى الاهمال وسوء الادارة على الرغم من أن الطواعين والحروب تعد أسباباً مساعدة فى معظم الأحوال ؛ أما تناقص الدخل فجرى علاجه بالاقلال من عدد الرهبان والراهبات ؛ وأهملت حفلات القداس وترتيل الترانيم ، ففى سنة ١٤٣٧ لاحظ الأساقفة الزوار أنه لم يشهد القداس فى بتربره Peterborough إلا عشرة رهبان أو إثنى عشر راهباً من بين ست وثلاثين راهباً كان من المفروض عليهم حضوره ، وكانت نسبة الحضور بين الرهبان فى رامساى Ramsey مشابهة لهذه النسبة ، «لدرجة أن جماعات المدنيين بدأوا يتحدثون عنا حديث السوء» .

ذلك هو التعليل الوحيد لحركة حل الأديرة فى انجلترا ؛ فلم يعد الرهبان محبوبين من الشعب ، بل إن انحلالهم كان منذ سنة ١٢٠٠ أقل خطراً من تخلفهم المتزايد عن المجتمع المحيط بهم ، ففى هذا المجتمع الخارجى كان التعليم ينمو ، وكانت التجارة تنتشر ، وكانت الأفكار تتسع آفاقها ، على حين أن الأديرة لم تشعر بما جرى من تطور ، ولم تحس بأن عجلة الزمن تدور ؛ وتكشفت عيوبها لجيل بذلت كثيراً فى سبيل تعليم أسلافه بطريق مباشر أو غير مباشر . والاتفاق تام بين المتمسكين بالأصول والصفوة من رجال الكنيسة على نقد الأديرة خلال القرون الثلاثة الأخيرة السابقة لحركة الإصلاح الدينى .

وكان «الأسقف بيكوك Bishop Pecock» (المتوفى حوالى سنة ١٤٦٠) على حق فى دفاعه حين عارض اللولاردين Lollards قائلا إن الرهبان

لو قورنوا بالعلمانيين – رجلا برجل – لرجحت كفة الرهبان ، ولكن المجتمع كان فى حاجة إلى أكثر من هذا ، كان فى حاجة إلى هيئة من الرجال تستطيع أن تبرر ما تتمتع به من ثروات ضخمة وامتيازات كثيرة ؛ وكانت جماعات كثيرة من العلمانيين والكنسيين على شئ من العلم بالجهود النشيطة التى بذلت فى سبيل الإصلاح ، وبضآلة نتائج هذه الجهود .

وأنوسنت الثالث هو أول البابوات الذين عنوا جدياً باصلاح الرهبنة ؛ فقد أصرّ فى مجمع لاتيران Lateran الرابع (عام ١٢١٤) على القول أنه ما دامت التشريعات الدينية العامة ونظام التفتيش قد قبلها عدد من المجامع فإنها يجب أن تسرى أيضاً على جميع البندكتيين ، هذا القرار كان له أثر واضح على الأوغسطينيين Augustinians [1] كذلك .

وفى نفس الوقت جاء الدافع من أسفل ، شأن الاصلاحات الديرية العظمى ، بل لقد كان هذا الدافع أكثر أهمية من الحركة الكارثوزية السيسترشيه – البريمونسترانتسية السابقة ، وكانت الديرية بفضل التبرعات والهبات الطائلة قد تورطت مع الإقطاع والرأسمالية (بذور الرأسمالية البدائية فى ذلك العصر المبكر) ، فتفتق ذهن القديس فرنسيس St. Francis (المتوفى عام ١٢٢٦) عن فكرة لإصلاح دينى اجتماعى جديد ، هذا الإصلاح فى جوهره كان معارضاً ومعادياً للرأسمالية ، وكان هدفه (أن يتبع المسيح العارى عرياناً) ، وهو يعنى حرفية هذه العبارة أكثر مما كان الراهب يقصد حين يستعملها ، فالرهبان كانوا فقراء أفراداً – إذا التزموا قوانين الرهبنة – ولكنهم كانوا أغنياء جماعات ، أما الأخوة الصغار (كما كان يسمى القديس فرنسيس تلاميذه) فيجب ألا يتملكوا شيئاً سواء أكانوا أفراداً أم جماعات ، بل إن البيوت التى يسكنونها يجب ألا تكون ملكاً لهم ، وكان نجاحه السريع

(١) لفظ يطلق على مايقرب من ٦٠ طائفة دينية تنتمى للكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وتستمد قانونها من مواعظ وكتابات القديس أغسطين أسقف هبو Hippo .

موعظة فى الهواء الطلق يلقيها أحد الاخوة الفقراء

كان الدومنيكان – من بين طوائف الإخوان الرهبان – هم الذين يقومون بصفة خاصة بالدعوة ، ولكن التبشير فى العالم كان واجب الإخوان الفقراء جميعاً ، وكانوا – كبشرين – يطلبون بكثرة ، ومع هذا لم يكن من الجائز أن يعتدوا على اختصاصات رجال الكنيسة أو أن يقوموا بالتبشير فى دائرة أبرشياتهم دون إذن منهم .

أعجوبة من أعاجيب التاريخ ، حتى يمكن أن نقول بحق أنه كان أشبه الناس بالمسيح منذ عهد المسيح ، ومع ذلك فإن هذا الهجوم الجرئ على الثروة قد فشل مع مرور الزمن .

أما القديس دومينيك St. Dominic (المتوفى عام ١٢٢١) — والمعاصر للقديس فرنسيس — فقد انتهى إلى ذات النتائج على وجه التقريب ، رغم أنه بدأ من نقطة مختلفة بعض الشئ ، فقد كان الرهبان الفرنسكان والدومنيكان حلفاء فى أول الأمر ، وتعلم الفرنسكان من منافسيهم وأصدقائهم أن يعنوا عناية خاصة بالدراسة والدعوة ، كما تعلم الدومنيكان أن يقدروا قيمة الفقر أكثر مما كانوا يفعلون فى بداية أمرهم ، ثم أصبحوا المثل الذى احتذته فى الوحدة والتماسك جماعتان من بين جماعات النساك الكثيرة الموجودة حينذاك والتى لم تكن — إلى حد ما — منظمة ، أولها صفة رسمية ، فجرى الآن تنظيم هاتين الطائفتين وحصلتا على قوانين تحمل موافقة البابا ، وهاتان هما : جماعة رهبان الكرمل ، وجماعة رهبان الاوستينين Carmelites and Austin Friars —

تنظيم الاخوان الفقراء : وقد أصبح للفظ « أخوة أو أخوان — Friars, Fratres » الذى استعمل طويلا فى الأديرة والمجتمعات الدينية المشابهة معنى خاص الآن ، فلفظ أخ Friar كان يختلف عن التعبير القديم « متدين Religious » فى نقطتين أساسيتين : فالأخ أصبح فقيراً ، لا بوصفه فرداً فقط ، بل بوصفه عضواً فى جماعة أيضاً ، ثم إنه لم يعد يلتزم العزلة فى صومعته كما كان يفعل من قبل ، وإنما أصبحت الصومعة مركزاً لاعداد أعماله التبشيرية فى العالم الخارجى ، وكان الرهبان الكنسيون Canons Regular يعملون فى الغالب قساً للأبروشيات غير أنهم لم يبلغوا فى العدد وحرية الحركة والانتقال ما بلغه الأخوان ، ومن الطبيعى أن يفيد البابوات والأساقفة الغيورون من هذه الحماسة الجديدة كما تجاوب الأخوان تجاوباً حميداً مع الطوائف القديمة .

وفى عام ١٢٣٦ نشر جريجورى التاسع — وكان صديقاً شخصياً للقديس فرنسيس وأحد كبار البابوات المشرعين — مجموعة من القوانين الاصلاحية

الصارمة ، ولكنها طبقت تطبيقاً سيئاً ، ثم بدأ الانحلال يصيب الرهبان أنفسهم بسرعة ، ولم يمض قرن حتى كانت الحاجة إلى التجديد أمس مما كانت من قبل .

عند ذلك أتى مصلح عظيم آخر من بين البابوات ، وهو بندكت الثانى عشر Benedict XII ، وكان هو نفسه أصلا من الأخوان السيسترشيين Cistercian ، وقد نشر مجموعة من القرارات الاصلاحية أكثر إحكاماً من القوانين البندكتية والأوستينية ، ومع أن البابا بندكت قد تسامح فى أشياء باعتبار أنها مما لا يمكن تفاديه ، فقد جاهد لوضع حد لما قد يجرى من اغفال للمثل العليا الصارمة ، بيد أن قوانينه كانت قليلة الأثر ، وكان انحلال الرهبنة موضوعاً من أهم الموضوعات التى عرضت للمناقشة فى المجمعين الكبيرين : مجمع كونستانس Constance (١٤١٤—١٤١٨) ، ومجمع بازل Basel (١٤٣١ — ١٤٤٣) ؛ وقد بذلت جهود كثيرة صادقة لا سيما فى ألمانيا وفرنسا وايطاليا ، حيث كانت الأحوال أسوأ مما هى فى انجلترا ، ولكن هذا الإصلاح كان ذا طبيعة انتقالية ، كما اعترف بذلك فى آخر القرن ترثيموس Trithemius ، وهو من أبرز رؤساء الأديرة المصلحين ، ولم يكن الراهب الفرنسى الكبير اجى جوينو Guy Jouennaux أقل يأساً من صاحبه ، فى كتابه الصغير الذى نشره فى عام ١٥٠٣ .

ولم يمكن فى انجلترا دير بلغ من الكفاية مبلغ أحسن الأديرة وأكثرها إصلاحاً فى خارجها ، ولكن المستوى العام للنظام فى أديرة انجلترا كان أرفع ، على أنه فى انجلترا ذاتها كان لابد من أزمة خطيرة حتى ينهار هذا الصرح الشامخ ، فقد أراد الملك أن يكون سيداً فى مملكته ، ولكن الرهبان كانوا تبعاً لدستورهم رعايا للبابا يتحصنون فى معسكرات تنتشر فى نواحى البلاد المختلفة ، ثم إن الملك اشتدت حاجته إلى المال ، وتوافر فى الأديرة من الغنائم والأسلاب ما يستطيع أن يستحوذ عليه دون أن يثير غضب الشعب بشكل خطير ، ولذلك كان من الطبيعى عند صراع الملك مع البابا أن يبدأ بمهاجمة الأديرة .

دير فونتين أجمل الأديرة فى انجلترا

تعد أطلال دير فونتين بالقرب من ريبون فى يورکشير — باستثناء دير تنترن Tintern — أكمل أطلال ديرية موجودة فى انجلترا ، وهى تحتوى على الكنيسة ببرجها وبيت التلاوة والقلايات وأجزاء أخرى من المبنى . وهذا الدير الذى كان بيتا سيترشيا يسكنه رهبان من دير سانت مارى S. Mary فى يورك بدأ بناؤه حوالى سنة ١١٤٠ ، وتم بعد مائتى سنة تقريباً ، وقد حل هنرى الثامن هذا الدير ثم بيعت أطلاله وأرضه بعد ذلك .

كانت الأخطاء التى ارتكبت فى حركة حل الأديرة الانجليزية بالغة الخطورة ، وكذلك كانت الخسائر ، مهما تغاضينا عن المبالغات المغرضة جميعها . وقد يقال إن أخطاء ومظالم أبشع من هذه قد أرتكبت بجشع ورغبة فى السلب والنهب لا تقل عما بدا فى انجلترا ، وذلك عند ما أقدم ملك أرثوذكسى فرنسى — بمساعدة البابا — على الغاء نظام رهبان المعبد فى عام ١٣١١ ، ولكن حركة حل الأديرة فى انجلترا إذا نظرنا إليها فى ضوء الأساليب التى استخدمتها فعلا ، هى رغم ذلك أقل أحداث التاريخ الانجليزى تشريفاً لمن قاموا بها ، على أننا قد نجد لها من الحوادث مبرراً إذا نظرنا إليها من حيث المبدأ الأساسى الذى قامت عليه .

وفيما تلا ذلك من تاريخ الديرية لا نجد ما نستطيع أن نسجله الا أن يكون تكراراً للقصة السالفة مما كان يتعاقب عليها من مظاهر الانحلال ومحاولات الاصلاح وإن كان التيار يسير بها فى الجملة سيراً حثيثاً الى أسفل ، وقد سار حل الأديرة فى ألمانيا البروتستانتية خيراً مما سار فى الجزر البريطانية ، فخصصت نسبة أكبر من مبانى الأديرة وايراداتها للأغراض التعليمية ، وفى ألمانيا والنمسا الكاثوليكيتين ترتب على الاصلاح الكاثوليكى حركة إحياء للتنظيم والتعليم الديريين ، وفى هذا المجال خرّج البندكتيون بوجه خاص عدداً طيباً من الطلاب والكتاب البارزين .

مجمع سانت مور St. Mour : بيد أن البندكتيين قد بذلوا أحسن جهودهم فى فرنسا ، ولا سيما فيما يتعلق باصلاح مجمع أديرة سان مور ، فهذا الاصلاح يعد من جميع الوجوه أهم حادث فى تاريخ الديرية فى المدة بين قيام اليسوعيين وبدء الثورة الفرنسية .

وقد تأسس مجمع أديرة سان مور فى عام ١٦٢١ تحت رعاية جريجورى الخامس عشر ولويس الثالث عشر ، ورحب بهذه الحركة الكردينال ريشليو ، فقد كان يعمل جاهداً فى سبيل إصلاح الديرية إصلاحاً شاملا ، ولهذا فقد حاول أن يضغط على كل البندكتيين فى فرنسا للانضمام لهذا المجمع ،

ومع أنه فشل فى هذا ، فانه بمرور الوقت قد انضم الى المجمع مائة وواحد وتسعون ديراً لم يقل رهبان الواحد منها عن تسعة من الرهبان، ولابد أن المجمع كان يضم نيفاً وألفى راهب .

ولقد أدت حياتهم الرتيبة والعناية التى كانوا يبذلونها لتعليم الرهبان الجدد إلى نمو مضطرد فى الدراسات العلمية ، وإن كان من الواضح أنهم لم يهدفوا الى تحقيق هذا الغرض مباشرة منذ البداية ، واستطاع رجال اشتهروا بعلمهم الغزير أن يخرجوا على أيديهم عدداً من الطلاب يفوقونهم علماً ، وكان كل دير يثير منافسة الدير الآخر ، وكان الكل يتسابقون فى البحث والانتاج والتعاون ، وفى الحقيقة لقد كانوا جامعة كانت لها شعبها المنبثة فى كل ناحية من نواحى المملكة، وكانت على اتصال دائم بالعلماء والطلاب فى الخارج . ولم تكن قوة الرهبان تتمثل فى الآراء الأصيلة المبتكرة بقدر ما تتمثل فى القدرة على البحث، أو فى القدرة على اكتشاف الوثائق القيمة والعمل على نشرها، أو فى اخراج الطبعات ذات المستوى العلمى التى قام على نشرها الآباء ، أو فى طبع حوليات العصور الوسطى ، وتكملة الذيول والصلات العلمية المتقنة لكتب التاريخ ، وخير مثال لها : « فن تحقيق التاريخ The Art of Verifying Dates » و« التاريخ الأدبى لفرنسا The Literary History of France » غير أن رفضهم العمل ضد الجانسنيين[1] Jansenistis وميولهم الجاليكانية[2] جعلتهم عرضة لهجمات اليسوعيين العنيفة ، ثم لم تلبث أن تسللت بعض العيوب الخطيرة إلى هذه الهيئة الممتازة ، وكانت أحوالها العلمية قد تعطلت وأصابها الفساد فعلا عند ما قامت الثورة الفرنسية ، فأزالتها من الوجود كما أزالت غيرها من الأديرة .

---

(١) الذين ينتمون إلى جانسينوس أسقف Ypres ، وكتابه المعروف باسم أغسطينوس يتضمن ما أعتقد أنه تعاليم القديس أغسطين فى الإرادة الحرة والعفو الإلهى .

(٢) الـ Gallicanism هى الميول والمبادىء والأعمال التى أخذ بها رجال الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى فرنسا الذين عملوا على أن تزداد سلطة الكنيسة القومية على حساب سلطة البابوات، وهذا اللفظ مشتق من المجادلات التى جرت بين ملوك فرنسا والبابوات فى العصور المختلفة .

وكان لما فعلته الثورة سوابق قديمة فى القارة نفسها ، فقد طرد اليسوعيون من البرتغال وفرنسا واسبانيا فيما بين سنتى ١٧٥٩ و١٧٦٧ ؛ وفى عام ١٧٧٥ ألغى كلمنت الرابع عشر هذه الطائفة نهائياً ، وحوالى نفس الوقت ألغى امبراطور النمسا المصلح جوزيف الثانى عدداً كبيراً من الأديرة ، ثم حاول أخوه ليوبولد التوسكانى أن يفعل فى ممتلكاته أكثر مما فعل جوزيف ، ولكنه قوبل بمعارضة شديدة .

وبعد الثورة الفرنسية حلّت كل من ألمانيا وأسبانيا ما بهما من أديرة ، ونهجت نهجهما ايطاليا فى عام ١٨٧٣ ، وفرنسا فى نهاية القرن التاسع عشر .

وفى أمريكا الجنوبية ألغى معظم الأديرة فى تواريخ متفرقة ، وإن كان قد أعيد احياؤها بأساليب مختلفة .

والحقيقة أنه توجد فى الفكرة الديرية نواة تجذب قلوب كثير من الناس ، ولها فى نفس الوقت قيمة أخلاقية ودينية كبيرة ، ولهذا فإن كل ما تستطيع الدولة أن تفعله ، أو ما يجب عليها أن تفعله ، هو أن تقيد هذه المجتمعات وأن تنظمها تبعاً لنفس المبادئ التى تأخذ بها الجماعات الأخرى .

وبالمثل لايزال هذا النظام موجوداً فى بلاد غير مسيحية ، ويقال إن الأديرة البوذية فى سيلان وفى الصين قد أصابها كثير من التأخر والانحلال ولكنها لاتزال تعجّ بالنزلاء ، ولها عظمتها فى اليابان وبورما ، وبوجه خاص فى التبت ، ويروى كذلك أنه من بين الثلاثين الفاً من سكان لهاسا Lhasa الحاليين يوجد ١٠,٠٠٠ راهب .

أما فى الهند فإنه من العسير أن نفرق بوضوح بين النساك المتجولين وبين الجماعات المستقرة من الرهبان ، ومع ذلك فإن هذه الجماعات ما زالت كثيرة العدد وغنية فى معظم الأحوال ، وترى الحكومة فى بعض الحالات أنه لزام عليها أن تتدخل لتمنع سوء التصرف فى الايرادات الضخمة لهذه الجماعات .

جمال الدين الشيال